

الشخصيات القلقة فى الرواية العربية

د. رجاء عيد *

إن الشخصيات القلقة التى تتجسد فى جملة من الأعمال الروائية، إنما تؤكد أن الفن الروائى منفرد فى إطار الفكر وفى كينونته وعن طريق تداعل مختلف العلاقات التى تتيحها الرواية، يستطيع الروائى أن يوجه خيالنا وفكرنا لاستحضار صورة متكاملة لبناء فنى وفلسفى فى آن واحد.

من أعماله الروائية - جملة من مختلف الشخصيات القلقة التى تتخالف فى أسبابها وتكويناتها. وتتميز الشخصيات القلقة فى روايات « نجيب محفوظ » بأنها تتخلق من خلال جدلية فنية تتشابك خيوطها فى بنية العمل الروائى، وبواسطة رهافة انتقاء، وبراعة التقاط واختيار، تتشكل حيرت تلك الشخصيات، وما ينوء بها وما يعتمل فى وجدانها، ويكون العمل الروائى - من هذا السبيل - مجسدا لحضور الذاتى فى الغير، وموبخا لتشابك الفردية بالجماعية، فيما يشبه تمثلا للوعى الجمعى من خلال الضمير

وإذا اعتمد الروائى على ما يتيح النظر الفلسفى لتجسيد ذلك القلق الذى يصاحب الشخصية الروائية، فإن الروائى الجيد يحفظ للعمل الفنى رواءه، كما يملك القدرة على إعطاء مغزى فلسفى يكون مستشفا من خلال الملامح العامة للعمل الأدبى .

تتعدد المتجهات الروائية تجاه تجسيد معاناة الشخصية القلقة، فمنها ما يركز على الجانب السياسى، ومنها ما يتصل بالعلاقة بين الأنا والآخر، ومنها ما يناوش البطل من أفكار ومعتقدات.

ولعل «نجيب محفوظ» يمثل - فى عدد

* أستاذ النقد الأدبى بأداب منها - جامعة الزقازيق .

هذه الملاحظة إن نهايت «مصطفى سعيد» تحقق هذه الأهداف التي تمثل فشله من أول الرواية إلى آخرها (١)

وتتخذ هذه القصة - قضية التلاقى - من «المرأة» إطاراً لصورة العلاقة التصادمية أو التصالحية بين الشرق والغرب، باستثناء «موسم الهجرة إلى الشمال» والتي تكاد تختزل المواجهة - في هذه القضية - في إطار «الجنس»، وإن كانت تنفرد الأخيرة بسمات خاصة.

ولعل من العدل ما يقوله «مصطفى رضوان» في مقالة عن «مصطفى سعيد» (لقد كان من الصعب على مصطفى سعيد أن يميز بين الغرب الحضاري والغرب الاستعماري، إنه المائز الحقيقي بشخصية مصطفى سعيد) (٢)

لا يخلو الخط الذي يمتد محاولاً تحقيق ذلك التلاقى بين الحضارات في هذه الروايات من دوال تسكن ظل الرمز، ومن دلالات تخرج بالظل إلى النور في عبارات بعينها.

ففي رواية «موسم الهجرة» نجد - مثلاً - أن (النهر) هو رمز الحد الحاجز بين حضارتين: الشمال والجنوب، بينما تكون (السباحة نحو الشاطئ الآخر) هي محاولة

وبالمثل فإن عدداً من الروايات تنطلق من هذا السبيل، وتتخذ مسارات مختلفة ولكنها - في مجملها - تصب في إطار الشخصوس القلقة، ولعل من أبرز تلك الأعمال: «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح، و«الحى اللاتيني» لـيوسف إدريس و«قنديل أم هاشم» ، ليحيى حقي، ويكون المنطلق في الروايات السابقة معاناة «البطل» وقلقه لحظة التلاقى بين ذاته أو أنه العربية أو الشرقية، وبين الآخر في الغرب، أو الأنا والآخر.

إن رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» إذ تجعل ركيزتها شخصية «مصطفى سعيد»، كما نعلم - إنما تثير كثيراً من التشابكات النفسية والتحويلات الاجتماعية، ومدى أثرها على الشخصية الروائية، ففي سؤال موجه للطيب صالح: (هل أرادت الرواية أن تعبر عن فشل جيل كامل نشأ في ظل الاستعمار وقيمه، وتشرب نظامه، ثم رجع إلى أرض الوطن وهو يقف ضد تلك القيم محاولاً أن يتأقلم مع الحياة في وطنه؟!

ومع اضطراب السؤال في رأينا حول القيم وكذلك الاضطراب في جملة «وتشرب نظامه» فإن رد الطيب صالح يسمح لنا بتفويل آخر كما سنرى، يقول في إجابته: (أعتقد من الحق أن نقول إن الرواية تتضمن

(١) من حوار مع «الطيب صالح» ملحق بكتاب تحولات الشوق في موسم الهجرة إلى الشمال» لمحمد شاهين - بيروت ١٩٩٣ - ص ١٩٥ .

(٢) من مقالة عنوانها «هل كان مصطفى سعيد رمزاً لهزيمة الشرق» بقلم محمد رضوان، مجلة الموقف الأدبي - العدد (٢٧) - ١٩٩٣ .

بين طرفين متصارعين - فى تمسكه بحبيته ورغبته فى الزواج منها والاستقرار معها، وبين ترده بعد قراءته خطاب والدته، حيث ينبض بداخله التقاليد ووطأة الموروث، والنظرة الشرقية للمرأة الغربية، وحيث تمثل المرأة عنصر المواجهة أو أحد الجوانب التى تومئ إلى المفارق بين الحضارتين .

وهناك جوانب أخرى فى الرواية تظهر كالبقع الداكنة تعكر مياه التيار وهى فى طريقها للانضمام إلى مياه الآخر، لكن هذا لا ينفي حتمية التلاقى والتواصل فكلما يسير فى مجرى نهر واحد هو نهر الحياة.

وتمثل هذه الجوانب فى عوامل تتقارب رغم الإيهام بتباعدتها، منها الغربة أو فقدان الهوية واغتراب الذات فى مجتمع يحقنها ببراشن الانتماء، التى تبينها لنا دول هذه المقتبسات التالية :

(ولكن رويدك. ولا تتعجل فى الحكم. الأرجح أنك ما تفتأ تعيش فى خيالك، وإن كان الواقع بين يديك. إنك ما تزال مشدوداً إلى أوهامك) (١)

(..... وأنت لن تنفر منهم إذا أدركت أنهم شبان قلقون، يبحثون عن أنفسهم. إننا جميعاً، نحن الشبان العرب، ضائعون يفتشون عن نواتهم بأنفسهم. ولا بد أن نرتكب كثيراً من حماقات قبل أن نجد

للوصول إلى ذلك التلاقى، وهى (أحسست أن قوى النهر فى القاع تشدنى إليها) تتماهى ترسبات «الجنوب» وتراكمت الجنور والموروث.

و- الآن - صراع بين الثبات والتحول: (وفجأة وبقوة لا أدرى من أين جاءتني رفعت قامتي فى الماء) .

و (لن أستطيع أن أحفظ توازنى مدة طويلة) .

ولكن «الراوى» وقد صمم على «التخلص» من قيود تعوق التحرك وتمنع التحول وأن يخلع أريدة الجمود والتوقف، فإنه يقول: (دخلت الماء عارياً كما ولدتنى أمى)، ووضح دلالة العبارة، والتى يردفها بدوال أخرى تتبادل مواقعها بين الرمز والمرموز له:

* أحسست برجفة أول ما لامست الماء البارد.

* ثم تحولت الرجفة إلى يقظة .

وإن جملته الأخيرة تؤذن بتجاوز الصدمة الأولى، وتشى بحتمية التجدد وضرورة التيقظ لمستجدات حضارية ومعطيات ثقافية عديدة ومتعددة، وكثيرة ومتجددة، وينقبض القلق الاجتماعى والحضارى فى رواية «الحى اللاتينى» من خلال قصة حب بين (فؤاد) و (جانين مونترو) حيث يقف البطل

(١) الحى اللاتينى ص ٢٩ .

انفسنا.....) (١)

والرؤية الفلسفية، ومن بينهما تشكلت تلك الشخصيات القلقة، وهي تفرز تساؤلاتها فوق السطح اللغوي، وكأنها حوارات درامية غامضة في باطن العمل الروائي، وفي إطار هذا التشابك في نسيج الرواية - عند نجيب محفوظ - يكون المنحنى الفلسفي مستشفًا من مجمل الملامح العامة للشخصيات القلقة، فيما يشبه التقاطًا خاصًا لصورة الإنسان في علاقته المتوترة مع كلية العالم وشمولية الوجود.

الميلاد والموت . الوجود والعدم . الرحلة الشاقة تنطلق من ظلمة الرحم وتنتهي في ظلمة القبر، وبين الظلمتين تستلب حياتنا الحياة، فكل لحظة نعيشها فقد، وليكن معنا هذا المقتبس والذي ينزف تساؤلات كالجرح لا يندمل ، هذه نفثات رحالة تنطلق ذاهلة مذهولة في رحلة «ابن فطومة» لنجيب محفوظ .

« والحياة والموت، الحلم واليقظة، محطات للروح الحائر، يقطعها مرحلة بعد مرحلة، متخبطًا في بحر الظلمات، متشبثًا في عناد بأمل يتجدد، عمّ تبحث أيها الرحالة؟ أي العواطف يجيش بها صدرك؟ لم تقهقه ضاحكا كالفرسان؟ ولم تدرف الدمع كالأطفال ؟ » (٤).

(.... كلهم حوله، وعشرات غيرهم، عيون تطل منها أرواح ضائعة، تبحث عن نفسها، على مقاعد الجامعات. وفي مقاهي الأحياء، وبين أذرع النساء. وهو نفسه، وهذا الشيء، هذه الصدفة الجوفاء، هذا العود من القش، أليس هو أضيعهم نفسًا، وأشردهم روحًا؟ (٢)

ومن هذه العوامل - أيضا - وطأة الموروث والتقاليد «التي تظهر الاختلاف بين المجتمعين، وتشكل صدمة التلاقى .

ولا تبتعد شخصية «إسماعيل» في «قنديل أم هاشم» عن هذا السبيل، فالبطل يظل في حالة من «القلق» والتوتر، والحيرة بين جملة من المعطيات الثقافية والحضارية، وبين الرؤية، والرؤى تتراوح في وجدان «إسماعيل» أمشاج من الوعي واللاوعي وهو في طريق عودته لوطنه وأهله « وشعر إسماعيل بأن هذه الجموع أشلاء ميتة... هذا الرضا عجز، وهذه الطيبة بلاهة، وهذا الصبر جبن» (٣).

أما «نجيب محفوظ» فله في ذلك السبيل ما يمكن أن يكون تميزًا خاصًا أو قراءة فنية لا ينازعه فيها أحد، وقد استطاع «نجيب محفوظ» خلق جدلية بين الأدبية الروائية

(١) المصدر السابق ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٧ .

(٣) قنديل أم هاشم ص ٤٧ .

(٤) رحلة ابن فطومة ص ٧ .

وفى رواية « الشحاذ » تطالعنا من أول صفحة محاولة استشفاف المعنى فى اللامعنى، وتتزاحم الكلمات التى تشي بأن كل شيء غامض وضائع، وأن البحث عن العلة والمعلول، والوجود والعدم، والقلب والعقل، صوت فى البحر وقبض للريح :

« سحائب بيضاء تسبح فى محيط أزرق، تظلل خضرة تغطي الأرض فى استواء وامتداد. وأبقار ترعى.. تعكس أعينها طمأنينة راسخة ولا علامة تدل على وطن من الأوطان، وفى أسفل طفل يمتطى جواداً خشبياً، ويتطلع إلى الأفق عارضا جانب وجهه الأيسر، وفى عينه شبه بسمه غامضة» (١)

هكذا افتتح «نجيب محفوظ» رواية: «الشحاذ» يوصف هذه اللوحة المعلنة فى حجرة الانتظار فى عيادة الطبيب، حيث جلس «عمر» - بطل الرواية - يتأمل هذه اللوحة، واستراح «عمر» لرؤية الطفل اللاعب المستطلع وأبقار المطمئنة، لكن القلق عاوده من جديد. ها هو ذا الطفل ينظر إلى الأفق، ها هو ذا الأفق ينطبق على الأرض، دائما ينطبق على الأرض من أى موقف ترصده، فياله من سجن لا نهائى، وما شأن هذه الجواد الخشبي؟ ولم تمتلئ وأبقار بالطمأنينة؟ هذه اللوحة فى بداية الرواية تعد ملخصا رامن لها. فربما كان فارس هذه

اللوحة هو بطل الرواية: «عمر» الذى أخذ يناطح الصخر، ويبحث عن المستحيل، لعله يحل لغزا لم يستطع حله أحد، كما يتوهم الطفل الصغير أنه يمتطى جواداً حقيقياً، إنه يتطلع إلى الأفق، أو إلى ما وراء الأفق، إلى المجهول، تماما كعمر الذى يبحث عن أشياء غريبة غامضة، أو إن شئت تتعدى حدود السؤال والجواب، أما الأبقار فربما تشير إلى تلك الطمأنينة التى يرفضها «عمر»... ولم يكن «عمر» سوى نموذج للبحث عن السر الخالد، عن الكنز الذى لا يبيح بتعوذته عن محاولة الوصول إلى ما لا يمكن الوصول إليه، ويكتشف «عمر» أن إدامة النظر والتطلع إلى أعلى، لا يجدى شيئا، والجوانح تنطوى على لوحة مشتعلة... وخاطبت المقاعد والجدران والنجوم والظلام، وخاصمت الخلاء، وغازلت شيئا لم يوجد بعد، حتى أراضى أمل قاتل فوعدنى بالخراب الشامل» (٢).

إن الرؤية الميتافيزيقية والتى تجسدها جملة من روايات «نجيب محفوظ» تظل مسكونة بالقلق، يظل أبطالها موسومين بالحيرة والتوتر، وهذه الرؤية الميتافيزيقية تمثل - من هنا - استكشافا جديدا للوجود لأنها تبذل جهدا فى أن تلتقط الإنسان والأحداث الإنسانية فى علاقتها بكلية العالم.

(١) الشحاذ ص ٤ .

(٢) السابق ص ٦٥ .

انتهيت؟ إلى مكان البداية، كثور الطاحون على عينيه غطاء، يدور ثم يدور، وهو يحسب أنه يقطع الأرض سيرا إلى الأمام في طريق مستقيم، ثم يخاطب «شهرزاد». حين تطلب منه الجلوس.

«كلا. لست أريد الجلوس. لست أحب الجلوس إلى هذه الأرض. دائماً هذه الأرض. لا شيء غير هذه الأرض، هذا السجن الذي يدور، إننا لا نسير، لا نتقدم، ولا نتأخر، لا نرتفع ولا ننخفض، إنما نحن ندور. يالها من خدعة!! نسأل الطبيعة عن سرها فتجيبنا باللف والنوران».(٢).

* * *

وهذا القلق الذي يسكن الشخصوص الروائية، والمسرحية - يظل أسئلة بلا جواب، وقد يتحول لدى الأبطال الثوريين حينما ينهزمون أمام قوى أكبر من آمالهم وطموحاتهم، يتحول إلى شعور باليأس والخيبة والإحباط، وقد يقف بعضهم في منتصف الطريق، ينوشهم قلق غامض، وتزعجهم أسئلة حائرة، حول الحق والباطل أو الصواب والخطأ، إن التلجج العالق بأولئك الأبطال إنما يمثل لذلك حيرة الروائي وقلقه المستكن في وجدانه أمام تعقد كثير من القضايا، وأمام ظروف سياسية واجتماعية متشابكة ومتداخلة. ولعل نماذج

إن الإحساس بالقلق يتوالى حين يدرك الإنسان أو تدرك ذاته المفكرة : «أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي لا يضمن فعله فيتردد ويتخبط ، ثم يبنى مشاريع، وهو مؤمل في النجاح مشفق أن يخفق، والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يشعر أنه ميت لا محالة، أما غيريهما في الطبيعة فيفتح ويزدهر في هدوء تام، وطمأنينة كاملة، فالنباتات والحيوانات مهما تتعرض للطوارئ فإنها تركز إلى اللحظة العابرة كأنما هي تركز إلى الأبد»(١)

إن البحث عن «معنى الحياة» ينبت بمجرد التفكير عن «معنى الموت» ويستتبع - بالضرورة - البحث اللاهث المجدب عن «معنى الوجود»، ويظل السؤال عبثاً والإجابة لا تريح النفوس القلقة، والتي تتعدد وتختلف درجات أنغماسها في دوامة الأسئلة الحائرة، ومن هنا تتخالف أسئلة «سعيد مهران» في «اللس والكلاب» عن «عيسى الدباغ» في «السمان والخريف» عن «أنيس ذكي» في «ثرثرة فوق النيل».

ولكن السؤال يبقى كالفصاة في الحلق، أليست محاولة حل اللغز أو اكتشاف السر هي التي يقول عنها «توفيق الحكيم» . على لسان «شهريار».

ها أنذا في القصر من جديد، إلام

(١) نص الأخلاق والدين لهنري برجون ترجمة سامي الدروبي ص ٢١٨ .

(٢) شهر زاد ص ١٥٧ .

من أعمال «نجيب محفوظ»، وتختلف درجات احتفالاتها برسم الشخصية القلقة، ولكنها - جميعا - لوحة متكاملة تكشف العلل والأسباب، وتتوغل داخل سراديب النفس الإنسانية .

نستطيع أن نرى انعكاس ذلك القلق الحائر على شخصية «كمال» الذى غلف روحه الشك والحيرة وفقدان الطريق فى تلك الدروب المتشابكة وسط هذه الأعاصير الفكرية الجامعة.

لقد أصبح البطل صورة للتمزقات النفسية والانقسام الوجدانى كما يعبر «نجيب» عن «كمال» قائلا:

(فى هذه الحياة السياسية يحب، ويكره، ويرضى، ويغضب ، ويبوكل شىء ولا قيمة له. وكلما واجه هذا التناقض فى حياته زعزعه القلق . ولكن ليست ثمة موضع فى حياته يخلو من تناقض وبالتالي من قلق(١).

لقد مزقته تلك الرؤى المتناقضة بين المثال الوضى وبين الواقع القائم، وأصيب البطل فيه بجرح نافذ من الشك والحيرة، لقد استشهد أخوه «فهمى» وهو يهتف باسم مصر، لكن أهذه هى البطولة حقا، أم أن استشهاداه فى مظاهرة سلمية لا يعنى شيئا.

لقد باخ كل شىء، لم يعد للحياة معنى

متعددة من صور أولئك الأبطال أو من يتصل بهم أو يساندنهم تشير إلى ذلك المضطرب الضخم الذى تتعم فيه الرؤى أو الرؤية، فعلى سبيل المثال، نجد شخصية «على طه» فى «القاهرة الجديدة» لنجيب محفوظ، حيث يجسد «على طه» بصورة ما شخصية الثائر صاحب النظرية الأيدولوجية، ومع ذلك فإنه يتذبذب ويتقوقع ويقف فى منتصف الطريق، ينتظر من يرشده إلى طريق الثورية، ينتظر الحل سابق التجهيز، ولذا نجده فى مسار الرواية متسكعا فى طرقات الفكر، وسرعان ما تنتهى ثورته إلى التخبط النفسى، والانصياع إلى أفكار تتناقض بين النزعة الدينية المتطرفة إلى أحضان الفلسفة المادية بحسبانها خلاصه الثورى، ثم يتغلب فى حيرته النفسية بين الرفض أو القبول لآى نظام.

وقد تلعب الحياة السياسية دورا هاما فى تشكيل ذلك الشتات أو تجسيم ذلك القلق فى الشخصيات الروائية، فنجد شخصية «عبد المنعم» وشخصية «أحمد»، فى السكرية، حيث يكون الأول ممثلا لفكر ومعتقد يخالف فيه الشخصية الثانية، وكلاهما رهن صراعات فكرية مع السلطة حتى ينتهى الأمر باعتقالهما على رغم أنهما وجهان مختلفان لكلا الفكرين.

وقد زادت هذا الطريق روايات مبكرة

(١) السكرية ص ٢١ .

«القاهرة الجديدة» يعبر عن كل الشخصيات القلقة لدى «نجيب محفوظ» والتي تعبر بلا شك عن سمة عصر قلق وحائر أيضا، إن هذه الصورة العصرية إدانة غير مباشرة للظروف كلها التي يشير إليها.

ويهتف «كمال» بأسى «أنا الحائر إلى الأبد» ويقول - كذلك - فى «السكرية» بعد أن تميعت أمامه الأشياء: «سعيد من لا يفكر فى الانتحار أو يتمنى الموت» (٢). و «منصور باهى» فى «ميرامار» يهتف مثله «إنى قلق وخائف» ويتسأل وهو فى دوامة القلق والضياغ، هل أستحق نعمة الحياة؟ إنى أبحث عن حل لمتناقضات شتى، حل عسير فيما يبدو، فلم لا يكون الموت هو «الحل الأخير؟» ونجده بعد أن أثر الانصياع لأخيه الضابط الكبير وترك رفاقه يذهبون، فقد أرض بطولته وأحس بالضياغ والضعف. ويقول وهو مستشعرا داخله الضائع الحائر «العفن يجرى مع الهواء، ولعله يصدر أصلا من ذاتى أنا» (٣).

* و «إسماعيل الشيخ» فى «الكرنك» يقول : «تبخر إيمانى وفقدت كل شىء» (٤). هذه البطولة التي كانت حلما يعيشه «البطل» سرعان ما تبرد جنوتها حين يستسلم صاحبها إلى مواصفات الحياة

لقد باخ كل شىء، لم يعد للحياة معنى تمزقت أحاسيسه الوطنية فى ذلك الشرخ الكبير الذي أصاب جدار نفسه، وتاه فى دوامة الضياغ حتى أثقلتته الهموم، وسأوى الشك بين الأرض والسماء، لم تعد الحياة مثل الماضى، لقد ضاع كل شىء وضاع الأمل وأصيب بخيبة أمل فى كل شىء. لا بد أن يهرب خارج ذاته، فإن غياب المناخ الأمن الذى يفرخ فيه الفكر يدفع إلى الشعور بالتفسيخ الوجدانى الذى تنغرس خناجره فى القلب حتى يتغيم كل شىء، ولا يبقى إلا الحيرة والأسى والضياغ كما يقول نجيب:

(كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه، وإن كان عقله لا يدرى أن المفر، عقله يقول حينا، حقوق الإنسان، وحينا آخر يقول: «بل البقاء الأصلح، وما الجماهير إلا قطع» (١).

هذه البطولات التي ضاعت بطولتها سواء شاركت كأحمد وعبد المنعم، أم توقفت عن المشاركة كما فعل «كمال» كلها فريسة سائغة لذلك المناخ الذى ينخر فيه طغيان يفوق كل حد مع تطاحن المذاهب الفكرية التي ترفض كل واحدة منها ما عداها، كل ذلك ولد الحس المأساوى بالحيرة والشك وفقدان الطريق.

(ماذا تخبئ لنا أيها الغد؟) سؤال فى

(١) السابق ص ١٥٧ .

(٢) السابق ص ١٨٢ .

(٣) ميرامار ص ١٥٥ .

(٤) الكرنك ص ١٨ .

ومعاناة الفقر والبؤس، كما كان الأمر عند «محبوب عبد الدايم» الذى أنكر كل المبادئ واحتقرها واحتقر كل من يحمل راية بطولة ما.

ونتيجة لازمة للخوف من الخوف. يقول «محبوب» أيضا معبرا عن انتهزاميته الراضة فى موقفه من «على طه» و«مأمون رضوان»:

يقول «محبوب» محدثا صديقه الصحفي عنهما : (ومن عجب حقا أنه وعلى طه نقيضان، ومع ذلك فلا يبعد أن يقذف بهما المجتمع معا إلى أعماق السجن، غير مفرق بين عابده والكافر به) (٢) .

نعم. هذه البطولة الضائعة، من ثابر عليها أكلته، ومن فر منها أكل نفسه .

هذه الصورة البانورامية العريضة لهؤلاء الأبطال التائهين فى إعصار من الحس الدامى بأن بطولتهم صارت هباء لخطأ ما ، لكن أين هذا الخطأ أو هذا الخل؟

وقد يكون مختبأ فى أعماقهم، قد يكون خللة الوضع الاجتماعى، قد يكون التهرؤ السياسى، قد يكون سلبية الواقعين على الشاطئ الآخر، ولا يمدون يداً لمن يصارعون موج السلطة وأعاصير الطغيان، قد يكون

نفسه حدود معالمها وقد فقد عقله. يقول «منصور باهى»: (يخيّل إلى أنه لا مستقبل لى لقد استغرقنى الماضى. فبت أعتقد أنه لا يوجد مستقبل) (١) .

لم يبق أمام الذاكرة إلا أن تجتز بأسى وندم تلك الذكريات التى احتضنت القلب يوما بأمل واعد، وعمل جماعى بطولى، والتى أشعلت فى النفس يوما حرائق الثورة والإرادة والتضحية . يقول « منصور باهى» فى «ميرامار»: (عاودتنى ذكريات حميمة، أحلام دموية، صراعات طبقية، كنز وتجمعات ، بنيان من الأفكار راسخ الأساس).

ومثله «عمر» حين تنوشه ذكريات كفاحه الأول مع «عثمان خليل» فى انشغال للماضى مذكرا له بعثمان وكفاحه... «وقال بفخار فى بدروم بيت «مصطفى المنياوى» : خليتنا قبضة من حديد، لا يمكن أن تنكسر، ونحن نعمل الإنسانية جمعاء، لا للوطن وحده... نحن نبشر ببولة الإنسان. نحن نخلق الثورة».

أين هؤلاء الأبطال وهذه الروح الفدائية إنهم فى السجن لقد ذهب «عثمان» إلى السجن، ومن قبله ذهب «أحمد» والواجب يحتم على مناصريهم بالثورة الأبدية، ولكن هل يجزئ أحد على هذه الثورة، لقد أطاح الإعصار الفكرى بهم والتفسخ الاجتماعى،

(١) ميرامار ص ١٨١ .

(٢) القاهرة الجديدة ص ١٧٠ .

برغبة طفل فى الهروب الخيالى الساحر:
(ما أجمل أن نهجر الأرض إلى الأبد)
ثم شاكيا (الأرض أمست معلقة لدرجة
المرض) .

لقد فقد بضياى بطولته الواهمة نفسه،
أصبح منفيا فى وطنه، يعانى ألما قاسية
ووحشة ومللا، ويتسائل فى جزع (إلام تمتد
هذه الحياة الكثيرة؟).

ويأتى لنا «نجيب» بـ «كوكتيل» من القلق
فى روايته «ابن فطومة» يمتزج فيه القلق
الوجودى بالقلق الدينى مع القلق السياسى،
ذلك فى بحثه عن «يوتوبيا» جديدة عن المدينة
الفاضلة «وهى فى الرواية «دار الجبل»
العالم المثالى، حلم البشرية فى بحثها
الدؤب عن الحق والخير والعدل، وبين الحلم
والواقع يمتد طريق شائب المعالم قاتم
الفجاج، تحضه الدماء وتظله ظلمات من
القهر، فهى سر مغلقة.

وقد ضاق «ابن فطومة» بالواقع وراح
يحلم بـ «دار الجبل» وهى دعوة إلى رحلة
البحث عن حلمه الذى ناوش المفكرين
والفلاسفة، والشعراء والعالمين والمثاليين،
والضائعين والضجرين من كل شىء .

ويتسأل الرحالة متحيرا :

— فماذا يريد الإنسان؟ وهل هو حلم

فيمن يكتفون بالإعجاب بشجاعة الآخرين،
أما أن يكونوا مثلهم، فلا، كما ثار «أحمد»
عبد الجواد» على «فهى» ولده حين علم
بنشاطه السياسى كما مضى.

ولذا يجد البطل نفسه والأرض تنسحب
من تحت أقدامه فيلجأ إلى الهروب والصمت
وتضميد الجراح.

هذه البطولة التى خمدت جنونها، لأنها
بطولة تنظر إلى بطولة أخرى تحتزيتها،
وترفض أن تنضم إلى بطولة أخرى تأخذ
المسار الأمل فى توثب جديد، ويقظة جديدة،
مما يدفع إلى الاكتواء بنيران الحيرة العقلية،
كما فعل «عيسى» وهو يشهد وطنه فى فترة
الاعتداء الثلاثى كما يقول نجيب:

(وقال عيسى - وكأنما يخاطب نفسه :-
أى مصيدة وقعنا فيها، إنه التخبط والتمزق،
والعذاب، إما نخون الوطن، أو نخون
أنفسنا، ولكن الهزيمة فى هذه المعركة تعنى
بالنسبة لى شيئا هو أفظع من الموت، أحيانا
أقول لنفسى، لئن نبقى بلا دور فى بلد له
دور، خير من أن يكون لنا دور فى بلد لا دور
له... وغاص «عيسى» فى نفسه القلقة)(١).

ما أصعب هذه اللحظات، أن يحاول
الهروب إلى الجسر كما فعل «كمال» هروب
من ضياى إلى ضياى، من طريق مغلقة إلى
طريق أشد إغلاقا، أن يفكر فى الهجرة، أن
يفقد انتسابه للوطن كله. ويتمتم «عيسى»

(١) السمان والخريف ص ١٦٩ .

وكأنه لها نهاية للقلق ولا خروج من التوتر إلا بالموت.

وتنتهي الرواية وما زال الطريق إلى «دار الجبل» محفوقاً بالصعاب، وتنتهي مذكراً الرحالة بهذه الإشارة الذكية التي يختتم بها، «نجيب محفوظ» رؤيته الفكرية الإنسان والعالم.

«وبهذه الكلمات ختم محفوظ رحلة قنديل محمد العنابي الشهير بابن فطومة. ولم يرد في أي كتاب من كتب التاريخ ذكر لصاحب الرحلة بعد ذلك .

هل واصل رحلته أو هلك في الطريق؟

هل دخل دار الجبل، وأي حظ صادفه فيها؟

... علم ذلك كله عند عالم الغيب والشهادة».

وتظل دائما الحلم الذي لا يتحقق والأمل الذي لا يأتي، من مختلف عبارات متفرقات تتأكد أنها عزاء وهمي للإنسان كلما ناء ظلم أو قهر، وكلما ساءه عنت أو قسر، وكلما أمضه إحباط أو يأس.

- «لم أصادف في حياتي آدمياً ممن زاروها، ولا وجدت كتاباً عنها أو مخطوطاً.. إنها سر مغلوق».

- لعلك تجدها أبعد ما يكون الحلم..

واحد أو أحلام بعدد النور والأوطان؟ وهل حقاً وجد الكمال بدار الجبل؟ !

ويصل الرحالة إلى «دار الغروب» وهذه الدار الجديدة ذات دلالات رمزية تضرب في أكثر من اتجاه، قد تعني نهاية العمر وخلوص الذات إلى عالم روحى. والحوار يؤكد ميل الرواية إلى ذلك الانعتاق الروحي بكل ما يتطلب من جهد ومعاناة حتى تكون الرحلة الأخيرة.

ويقول الشيخ :

- لا حاكم لهذه الدار، وأنا مدرب الحائرين...

ويتساءل الرحالة عن غايتهم فيجيبه الشيخ :

- جميعهم مهاجرون، من شتى الأنحاء يجيئون إعراساً عن الهواء الفاسد، وليعدوا أنفسهم للرحلة إلى دار الجبل.

ويتضح من المفزى العام ومن الرحلة الطويلة أن «الكمال» مطمح لا يتحقق، وأن الحلم يظل حلماً.

هذه نشارات من نصائح الشيخ إلى الرحالة وإلى رفقته ممن تحلقوا حوله والتي تتشكل من جملة تحاوراتهما والتي تشير في نهايتها إلى أن «دار الجبل» تعنى العالم الآخر.

- ما هى إلا رحلة إلى لا شئ (١).

إن ذلك القلق أو ذلك التأزم النفسى الذى ينوش أبطال تلك الروايات إنما هو تساوق طبيعى مع تلك الآمال المحبطة أو اليأس والشعور بالإخفاق، وفى مجمل تلك الروايات المتعددة نلاحظ مشاهد متلاحقة تتكشف فى تتابعاتها تحولات الحالات ، وتقلبات أفراد وجماعات.

ومن جملة عدد من «الأحلام» والتي تضمها مجموعة «رأيت فيما يرى النائم» تتشكل دلالات رامزة تتعدد مناحيها، وتختلف إيماءاتها، وجميعها تستشف ذلك القلق الغامض المستكن فى أعماق النفس البشرية. فمرة تنسج الكلمات برهافة بالغة، وفى لمح مجازى خاطف حيرة الإنسان فى تأملاته رحلة الحياة من الميلاد إلى الموت، ومرة تشكل الجمل الخاطفة فى أنساقها اللغوية التالية رسدا حركيا متجاوزا برودة الوصف، ومتعديا بلادة السرد، فتتفكك الجمل إلى حالة الفعل مباشرة مثل :

(الطموحات والصعوبات الرغبة والإحباطات والجميع فى الدائرة المغلقة) ومثل (الرياح على غير ما أشتهى .. ولست الوحيد فى المأزق)، وتحتشد نثرات من

رموز الأحلام، مكونة طرزا من أنسوجات إيحائية تتشكل فى خيوطها المجنولة بمهارة، إحباطات الذات القلقة أو الشعور بالاستسلاب والغربة، وما أكثر ما نلتقط مما تنائر فى مسار جملة الأحلام، سطورا تشى بالحيرة والقلق والتمزق :

- .. وأنا أركض بسرعة فائقة، ولكنى لم أدر أركض وراء هدف أريد أن أدركه؟ أم أركض من مطاردي؟

- أسعى وراء غاية، ولكنها غابت عن وعيى، أو غاب عنها وعيى، إن تتابع تلك الأحلام وإن تواليات المدلولات يجسد قدرة روائية فريدة ومتفردة، ويكون ذلك القلق الوجودى ركيزة ذلك العمل الروائى، حيث تتناسق به مفردات تشكل تتابعات دلالية، تتألق نفثاتها الشاحية فى صوغ ذى رهافة شاعرية (نحيفة وأنيقة، وتتقطر إحياءاتها فى بهاء له جمال وله جلال، وجميع ذلك يشى بزيف الأشياء وأنها جميعا: قبض الريح وباطل الأباطيل.

(١) رحلة ابن فطومة ص. ٢١